كان ولا يزال التراث الأدبي أحد أهم المصادر التراثية الأساسية، التي عكف الشعراء العرب المعاصرون، على استدعاء عناصرها المختلفة والمتنوعة، مما أثرى تجاربهم الفكرية، وأغنى رؤاهم الإنسانية. فقد شكل لهم دائما وأبدا المعين الذي لابد لأي شاعر أن يلم به معرفيا، حتى يتسنى له أن يبدع أدبه، إذا أراد لهذا الأدب قيمة ونموا وتطورا وهو ما تتسم به آداب الأمم والشعوب. حيث لا يخلو أي شعر عظيم فيها من هذه الرابطة التي تشير إلى عودة الشاعر إلى تراثه، والى منابعه الأولى، فهي تمثل خلاصة مكثفة لتجارب أجيال من الشعراء، لايزال لعطائهم وإبداعهم دور هام في إغناء القصيدة العربية المعاصرة، وإثرائها بالدلالات والمعاني العميقة. فضلا عن ما يلعبه هذا الاستلهام للتراث والعودة إليه من توطيد للعلاقة بين المتلقي، وبين هذا الإبداع الشعري، وإحساسه بالانتماء إليه كما أن التفات الشاعر المعاصر إلى التراث يأتي أيضا في إطار الإحساس الكامل ((بوحدة التجربة الإنسانية، فحاول عندها تضمين شعره شعر غيره ممن سبقوه في هذا المجال مع التصرف فيه أحيانا تصرفا يعين على نقل تجربته الخاصة وفي أحيان أخرى كان ينقله نقلا تاما)) [1] وهذا ما يتأكد لنا من خلال اطلاعنا على الكثير من القصائد التي في ثناياها كم هائل من العبارات، والألفاظ والتراكيب القديمة، وكذلك محاكاة الموضوعات التي عرفها الأوائل واستلهامهم لبعض الشخصيات التي وجد فيها قدرة على استيعاب تجربتهم، وما يؤمنون به من قضايا وأفكار ورؤى، كشخصية عنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وعروة بن الورد، وأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وغيرهم الكثير، ممن ألقوا بظلالهم على الشعر العربي المعاصر.

(ونحن حين نتحدث عن محاكاة القديم و استلهام روائعه لا نقصد بالتأكيد ذلك التقليد الأعمى للشعر الجاهلي، أو غيره من الأشعار عبر العصور المختلفة، وإنما استيعاب هذا الشعر وهضم مضامينه، ومحاولة النسج على منواله، بطريقة إبداعية جديدة، تظهر فيها شخصية الشاعر، وهو ما وجه إليه النقاد وأكدوا على ضرورة الالتزام به، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في كل فن قالته) [2] وذلك لأهمية هذا الأمر في البناء الشعري، بل ذهب البعض إلى ضرورة حفظ الشاعر الكثير من نتاج من سبقه لما في ذلك من فائدة عظيمة، تسهم بقدر كبير في صقل موهبته، وتفتح له مجالات واسعة للتألق والإبداع وهذا لا يتأتى إلا من خلال هضم أشعار الأولين يقول ابن خلدون: ((واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ، ثم بعد الامتلاء من الحفظ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال، يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال: إن من شرطه نسيان ذلك

[1] لغة الشعر أصالة الإبداع، عدنان قاسم (د ط 1981) الشركة العامة للنشر و التوزيع والإعلان، ليبيا، ص84.
[2] ينظر عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع (د ط. د ت) مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 13.

المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها فإذا نسيها وتكيفت النفس بها، انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسيج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة))[1].

والحقيقة أن العودة إلى تراث الأقدمين ليس عيبا ولا انتقاصا من قدر الشاعر، أو الإقلال من قيمة عطائه، بقدر ما هو توجه فني، يمنحه الكثير من الأصالة والغنى

لتجربته وهذا ما فعله السابقون من الشعراء عبر عصور مختلفة. فها هو امرؤ القيس أحد أبرز شعراء العصر الجاهلي يقول عند وقوفه على الطلل باكيا ومستبكيا:

عَوِجَـا عَـَــى الطَّـَلِ المُحِيْلِ ـَّنَـا نَبْكِـي الـدِّيَارَ كَمَـا بَكَـى ابْنِ خَـلَّمِ [2]

وفي هذا البيت إقرار من الشاعر امرئ القيس، بأن هذه المعاني والأفكار والرؤى التي طرقها، هناك من سبقه إليها من الشعراء ((فابن خدام هذا يقال أنه شاعر من طي، غير أنه لم يسمع شعره الذي بكى فيه)) [3] لكن الاشارة إليه في هذا البيت تظل دليلا قاطعا واعترافا صريحا من امرئ القيس على أسبقية هذا الشاعر له.

وهذا الشاعر زهير بن أبي سلمى، يذرك هو الآخر، حقيقة اعتماد الشعراء على من سبقهم، بل وتكرار ما قالوه في أحيان كثيرة، ولهذا نجده يقول في إحدى قصائده:

مَــــأرَىَ انَــــا نَقُــــولُ إِ ٰ ْ مُعَــــارًا وْ مُعَــــادًا مِــنَ لَفْظِنَـا مَـكْــرُورًا [4]

كما أن قول الشاعر عنترة بن شداد في المعلقة، يأتي تأكيدا لهذه الرؤية وإيمانا منه بحقيقة وجود شعراء سبقوه، ثم سار هو وغيره من الشعراء على نهجهم، واقتبسوا طريقتهم شكلا ومضمونا. حيث فيقول:

هَــلْ غَــادَرَ الشُّـعَرَاءُ مِــنْ مُتَـرَدَّمِ أمْ هَـلْ عَرَفْتَ الـدَّارَ بَعْـدَ تَوَهُّمِ [5]

ولم تكن ظاهرة الاتكاء على القديم والأخذ منه، مقتصرة على عصر بعينه، بل شملت عصورا مختلفة، وأزمنة متعاقبة ((عرف فيها الشاعر العربي موروثه واستفاد منه تضمينا، واستلهاما، وتشبيها)) [6] لما ينطوي عليه هذا التراث، من مضامين يجب العمل على الكشف عنها، وتجليتها وتوجيه الأنظار إلى ما فيها من قيم

---

[1] مقدمة ابن خلدون (ط5. 1984م) دار القلم بيروت، ص 574.

[2] ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ط3 1969م) مطابع دار المعارف، مصر، ص 114

[3] المعلقات السبع دراسة للأساليب والصور والأغراض، حسن بشير صديق (ط 2. 2005م) الدار السودانية للكتب الخرطوم، ط 2005م، ص 29.

[4] تاريخ الأدب العربي. العصر الجاهلي، شوقي ضيف (د ط 1982م) دار المعارف، مصر، ص 226.

[5] المعلقات السبع دراسة للأساليب والصور والأغراض، ص 29.

[6] التراث العربي كمصدر للمعرفة والإبداع في الشعر العربي الحديث، طراد الكبيسي (دط 1987م) دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ص 10.

فكرية وروحية وفنية، صالحة للبقاء والاستمرار الأمر الذي يسهم بدوره في ربط الشعراء بتراثهم العريق، ووصله بأسباب القوة والنماء، التي لا تتحقق إلا بخلق علاقة وطيدة وواعية مع التراث الأدبي من خلال مراجعته وتفعيله بوصفه معطى حضاريا وشكلا فنيا في بناء العملية الشعرية وهذا ما أدركه الشعراء المعاصرون، وتيقنوا من أهميته وضرورته عند صياغة تجاربهم الشعرية رغم أن هذا الوعي الذي تنامى لديهم حول توظيفه لم يشكل السابقة الشعرية الأولى، فقد كان هناك رعيل سبقهم في هذا الميدان، ومهد لهم الطريق وذلل الصعوبات، فشكل بحضوره أثرا في تجربة الشعراء اللاحقين، كما كانت أسبقية شعرية في كيفية تناول هذا التراث وآليات توظيفه واختيار رموزه التي تضفي على التجربة الشعرية بعدها الفني والإنساني [1]

وبهذا أصبح التراث الأدبي يشكل جانبا مهما من التكوين الشعري لدى الشاعر المعاصر، بل و ملمحا من ملاح شخصيته، التي ساهم بكل مكوناته في بناء عناصرها، ووضع أسسها الفنية، غير أننا لا يجب ((أن نفهم بأن التراث هو كل ما خطه الأقدمون، وحفظته الصفحات،لأن التراث عند الشاعر هو ما يحبه منه فيختار النماذج الصالحة للتفاعل ليؤسس رؤيا، ومن هذه الرؤية الجديدة، يبدع شعره الجديد فالإبداع تواصل مع التراث وانقطاع معه معا، وارتباط به وثورة على الفاسد منه، حتى لا يكون نسخة عنه وتقليدا له، والجديد ليس هدما للقيم، بل إنه إعادة قراءة لهذا القديم في ضوء التجربة الحديثة)) [2]

فالتراث الأدبي هو أصل كل إبداع، إذ به يتم التحديث، وكل ادعاء بالقطع معه يشكل وجها من وجوه التخلي عن الهوية، التي تحرص الأمم على المحافظة عليها وعلى خصوصيتها، التي تميزها عن باقي الأمم، على مدى التاريخ. ولهذا على الشاعر المعاصر ((أن يدرك أن تراثه القديم قد كان هو المنبع الذي ساقه لإبداع الجديد، ويعد إنكاره والمغالاة في النفور منه، هو مظهر من مظاهر ضعف الثقة بالنفس عند الأمم)) [3] إن تراثنا الشعري بكل ألوانه وموضوعاته، هو من جعل الشاعر المعاصر صاحب رؤية ومنهج في تذوق الشعر وفهمه، فضلا عن أن الشاعر ينمو من التراث وبالتراث، فهو يحمله في باطنه، ومنه يكون انطلاقه لعالمه الشعري ولهذا كانت قراءة الشاعر لهذا التراث، قراءة منهجية وواعية، كفيلة بربطه بماضيه، دون أن يشكل هذا التوجه الفني، حبسا له في قوالب هذا الماضي وأساليبه لأن هذا

---

[1] ينظر أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة، كامل بلحاج (د ط 2004م) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 26.

[2] ينظر الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين اسماعيل (د ط 1981م) دار العودة، بيروت، ص 28.

[3] الأعمال الكاملة، صلاح عبد الصبور (د ط 1992م) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 422.

((الموروث لم يكن لينتزع الشاعر العربي من عروقه أو من جذوره ولكنه جدير بأن يثير حوارا بينه وبين الموروث الشعري القديم))[1]

وفق هذه النظرة الواعية والفاحصة، سعى الشعراء المعاصرون للإفادة من التراث بشكل عام، ومن مكونات التراث الأدبي بشكل خاص. ويأتي في مقدمة هذه المكونات النص الشعري الذي يعد تضمينه من قبل الشاعر المعاصر دليلا على قدرته على تمثل هذه النصوص، وعلى توظيفها توظيفا معنويا وفنيا، مما شكل رافدا قويا لهذه النصوص، على أن الشاعر المعاصر لا يقوم بعملية الاستدعاء هذه في شعره، إلا إذا كان هناك من المقومات المشتركة بين نصه الشعري والنص التراثي ما يسمح له بهذا الاستدعاء، ويدفع إلى تبنيه وتضمينه، وإن كان الشاعر في هذا التوجه لا يركز على الجزئيات المشتركة ولا يلح في طلبها، فكلما قل الاشتراك في المقومات بين النص التراثي والمبدع زاد التميز وظهرت الأصالة في النص الجديد، وكلما زادت هذه المقومات المشتركة ظهورا وبروزا، أصبح النص الجديد نسخة مكررة عن القديم، مع ملاحظة أن الافادة من النصوص المقتبسة ليس بالأمر الهين والبسيط، فهي نصوص موظفة في أغراض خاصة، ومتجلية في معاني محددة، وسياقات خاصة، ولا يستطيع الافادة منها إلا من له من الموهبة الفنية والإمكانات الابداعية ما يؤهله لخوض هذه المغامرة.

وهذا ما تجلى لنا بكل وضوح في صور تعامل شاعرنا احمد الشارف مع هذا التراث وارتباطه به، حتى صار مكونا أصيلا من مكونات شعره، بل وعونا له على الإبانة عن الكثير من القضايا التي تشغل فكره، وتستحوذ على مشاعره، في دلالة واضحة على عمق العلاقة القائمة بين قصائده، وبين الإحالة على هذا التراث، سواء على مستوى الصياغة و التشكيل، أو على مستوى الدلالة والرؤيا في أسلوب فني رائع، يكشف عن قدرات إبداعية، تمكن بفضلها من توظيف هذا التراث بما يخدم اللحظة الآنية التي يعيشها، والعصر الذي يمثله، خاصة وأن هذا التراث يمثل خلاصة مكثفة لتجارب أجيال من الشعراء والحكماء التي يستطيع الشاعر الإفادة منها في بناء نصوصه. وقد عمد الشاعر أحمد الشارف إلى توظيف هذا التراث الأدبي، بأدوات فنية تعتمد في أساسها على التضمين بنوعيه: النصي التام والجزئي والاشاري. ثم المعارضات الشعرية، وكذلك استدعاء الشخصيات الأدبية. وسيحاول الباحث الوقوف على هذه الآليات بدءا بالتضمين بأنواعه المختلفة، ثم الانتقال إلى الأساليب الأخرى في استدعاء هذا التراث .

[1] الأعمال الكاملة، صلاح عبد الصبور/ ص 427.